حرف في كتاب الله

عني أسلافنا – جزاهم الله خيراً – أتم العناية باللغة ، فحرصوا على النقل الصحيح ، ودأبوا على التمحيص والتدقيق ، ولا ريب أن خدمة كتاب الله كانت الحافز الأكبر لهم على بذل هذه الجهود المضنية .

وكانوا يتهيبون القول في القرآن ما لم يسندهم الشاهد من كلام العرب أو يسعفهم النقل الصحيح في معني الآية عمن يثقون فيهم ممن تقدمهم ، بل كان منهم من يتوقى أن يفسر شيئاً من القرآن ، وهو عبد الملك بن قريب الأصمعي .

والاختلاف في معاني الكلمات أمر طبيعي ما دامت اللغة ليست لغة قبيلة واحدة ، فلا جرم أن اختلاف العلماء في تأويل القرآن أمر طبيعي أيضاً .

ولكن الذي يدعو إلى التساؤل أن يختلف معنى الكلمة نفياً وإثباتاً ، ولا يرجع المدار في ذلك إلى النقل عن العرب ، وإنما يرجع إلى تحكيم الرأي ، ثم إسناده بعد ذلك إلى اللغة .

ويزداد التساؤل حين يرتب على هذا الفهم أو ذلك حكم شرعي يراه عالم من العلماء ويخالفه فيه الكثير .

كل هذا مر بخاطري عندما كنت أبحث عن تأويل هذه الآية في كتاب الله تعالى : ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾ [النور : ٤٠] ورأيت اختلافاً غريباً ، فقائل بأنه لا يراها وذكر (يكد) للمبالغة في نفي الرؤية ، وثان يقول : إنه يراها بعد إبطاء وعسر لتكاثف الظلمة وترادف الموانع من الرؤية ، وقال آخر : معناه إذا أخرج يده لم يرد أن يراها لأن ما شاهده من تكاثف الظلمات أيسر من تأمل يده ، وقرر في نفسه أنه لا يدركها ببصره ، وحكي عن العرب أولئك أصحابي الذين أكاد أنزل عليهم أي أريد أن أنزل عليهم ، وقال الشاعر :

كادت وكدت وتلك خير إرادة لو عاد من لهو الصبابة ما مضى

إنما أرادت وأردت ، وقال الأفوه الأودي :

فإن تجمع أوتاد وأعمدة وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا

أي أرادوا ، وقال بعضهم معنى قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي أردنا.

ومنهم من يجعل (يكد) صلة . وهذا مبني على اختلافهم في مؤدي الحرف (كاد).

وعجيب أن نرى جمهرة اللغويين يجمعون فيه على رأي ، ثم نرى جمهرة النحاة والمفسرين يجمعون على رأي آخر مناقض للأول .

رأي اللغويين :

قال ابن الأنباري : « قال اللغويون : كدت أفعل معناه عند العرب قاربت ولم أفعل وما كدت أفعل معناه فعلت بعد إبطاء وشاهده قوله تعالى :

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة : ٧١] معناه فذبحوها بعد إبطاء لتعذر وجود البقرة عليهم » .

ولا شك أن ابن الأنباري اعتمد على ما نقله علماء اللغة والتعميم في كلامه يدل على أن رأي جميع اللغويين كذلك ، ويؤيده ما روي عن الفراء أنه قال : العرب تقول ما كدت أبلغ إليك وأنت قد بلغت ، قال وهذا هو وجه العربية ، وقال في موضع آخر وهو يفسر الآية السالفة الذكر : كلما أخرج يده لم يكد يراها من شدة الظلمة لأن أقل من هذه الظلمة لا ترى اليد فيه ، وأما لم يكد يقوم فقد قام هذا أكثر اللغة ، وعلى هذا – فالفراء يؤول الآية على خلاف الأكثر .

ويؤيده أيضاً ما نقل عن أبي بكر أنه قال : في قولهم قد كاد فلان يهلك معناه قد قارب الهلاك ، فإذا قلت ما كاد فلان يقوم فمعناه قام بعد إبطاء ، وكذلك كاد يقوم معناه قارب القيام ولم يقم ، قال : وهذا وجه الكلام .

وكتب اللغة أيدت هذه النقول وآمنت بها ففي لسان العرب « كاد وضعت لمقاربة الشيء فعل أو لم يفعل ، فمجردة تنبيء عن نفي الفعل ، ومقرونة بالجحد تنبيء عن وقوع الفعل » ومثل هذه العبارة في القاموس والمصباح والصحاح .

وقد ذاع هذا المعنى لكاد ، وأصبح أمراً لا جدل فيه حتى ألغز فيه الشاعر اللغوي أبوالعلاء المعري :

أنحوى هذا العنصـــر ما هي لفظـــة جـرت في لساني جرهم وثمود

إذا استعملت في جانب النفي أثبتت وإن أثبتت قامت مقام جحـود

وقالوا أنه يقصد الفعل « كاد » وبهذا أجابه الشهاب الحجازي بقوله :

لقد كاد هذا اللغز يصديء فكرتي .

وما كدت منه أشتفي بورود

فهذا جواب يرتضيه أولو النهى .....

وممتـنع عـــن فهم كـل بليد

هذا رأي اللغويين وخلاصته أن كاد في الإثبات تدل على مقاربة الفعل ولا تدل على وقوعه ، وفي النفي تدل على الوقوع أعم من أن يكون مع إبطاء أو عسر أو لا يصحب واحداً منهما ، قالوا : وهكذا جميع الاستعمالات العربية .

وجرى على ذلك الشيخ العراقي في فرع من فروع الفقه . فقال في فتاويه : لو قال لامرأته : ما كدت أطلقك يكون إقراراً بالطلاق فيحكم عليه بالوقوع . نقله ابن السبكي في نظائره .

ونرتب عليه أن كلام كتاب الصحف اليوم من مثل قولهم : ما كاد يراني – حتى هرع إلى . وما كدت أجلس حتى ابتدرني قائلاً ..... صحيح .

رأي النحاة :

فإذا ذهبنا نستفتي النحاة في هذا الذي قاله اللغويون وجدنا منهم تنديداً به وتخطيئاً له ووجدناهم يقيمون الشواهد على أن الأمر غير ما يقول أصحاب اللغة .

قال شارح الكافية (ومن زعم هذا – يعني قولهم أنها في النفي للإثبات – فليس بمصيب بل حكم كاد حكم سائر الأفعال ، وأن معناها منفي إذا صاحبها

حرف نفي وثابت إذا لم يصحبها ، فإذا قال قائل كاد زيد يبكي فمعناه ، قارب زيد البكاء ، . فمقاربة البكاء ثابتة ، ونفس البكاء منتف ، وإذا قال : لم يكد يبكي فمعناه لم يقارب البكاء فمقاربة البكاء منتفية ونفس البكاء منتف انتفاء أبعد من انتفائه عند ثبوت المقاربة ، ولهذا كان قول ذي الرمة :

إذا غير النأي المحيين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح

صحيحاً بليغاً لأن معناه : إذا تغير حب كل محب لم يقارب حبي التغير وإذا لم يقاربه فهو بعيد منه فهذا أبلغ من أن يقول لم يبرح لأنه قد يكون غير بارح وهو قريب من البراح بخلاف المخبر عنه بنفي مقاربة البراح .

وقد ذكر عبد القاهر في دلائل الإعجاز قصة وقعت لذي الرمة وعلق عليها بقول – مع شيء من الاختصار – وقف ذو الرمة ينشد الناس بالكناسة في الكوفة قصيدته الحائية التي منها :

هي البرء والاسقام والهـــم و المنـــى وموت الهوى بالقلب منى المبرح

وكان الهوى بالنأي يمحى فيمحى .. وحبـــك عندي يستجد ويربح

إذا غير النأى .... إلخ

فناداه ابن شبرمة ياغيلان ، أراه قد برح ، فأنكر ذو الرمة ثم قال : إذا غير النأى المحبين لم أجد ..... قال عنبسة الفيل – وهو راوي القصة – فحدثت أبي فقال:

أخطأ ابن شبرمة حين أنكر على ذي الرمة ، وأخطأ ذو الرمة حين غير شعره لقول ابن شبرمة ، إنما هذا كقول الله تعالى ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍۚ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ وإنما هو لم يرها ولم يكد .

ثم ذكر الشيخ سبب الشبهة في ذلك فقال إنه ما جرى به العرف من قولهم: ما كاد يفعل ، ولم يكد يفعل في فعل قد فعل ، على معنى أنه لم يفعل إلا بعد الجهد ، وبعد أن كان بعيدا في الظن أن يفعله لقوله تعالى : ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾. فلما كان مجيء النفي في كاد على هذا السبيل توهم ابن شبرمة أنه إذا قال لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح ، فقد زعم أن الهوى قد برح ووقع .

رأي المفسرين :

المفسرون مقتنعون برأي النحاة فقد جاء في الكشاف في تفسير قوله تعالى على لسان فرعون : ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف : ٥٢] يريد أنه ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به ، وهو في نفسه مخل بما ينعت به اللسن والفصاحة وكانت الأنبياء كلهم أبناء فصحاء .

وفي الجلالين : ﴿فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨] أي لايقاربون أن يفهموا حديثاً يلقى إليهم ، ونفى مقاربة الفعل أشد من نفيه .

وفي أبي السعود : أو هو استئناف معنى على سؤال نشأ من الاستفهام – كأنه قبل ما بهم ، وماذا يصنعون حتى يتعجب منهم وحتى يسأل عن سببه ؟ فقيل : – لايكادون يفقهون حديثاً من الأحاديث أصلاً فيقولون كما يقولون ، إذ لو فهموا شيئاً لفهموا هذا النص وما في معناه وما هو أوضح منه من النصوص الناطقة بأن الكل من عند الله . وفي البيضاوي – عند قوله تعالى : فذبحوها وما كادوا يفعلون قريب مما ذكر شارح الكافية .

وقد تعرض ابن قتيبة في مشكل القرآن لكاد فقال : كاد بمعنى هم ولم يفعل

(ربع عفا من بعد ما قد امحى)

قد كاد من طول البلى أن يمصحا

وأنشد الأصمعي :

كـــادت النفس أن تعيط عليــه

إذ يـــؤدي حشوريطة وبـــرود

وقال بعضهم : قد جاءت كاد بمعنى فعل وأنشد قول الأعشى :

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت

لعينـــيه في سافر كاد يبرق

أي لو عرضت له لبرق أي دهش وتحير .

وقصارى القول أن الجميع متفقون على أن كاد في الإثبات تفيد نفي خبرها ويساعدهم قول ابن عباس رضي الله عنهما : كل شيء في القرآن كاد وأكاد ويكاد .

فإنه لا يكون أبداً وتساعدهم الشواهد الكثيرة ، ففي الحديث الشريف : من تأنى أصاب أو كاد ومن عجل أخطأ أو كاد .

وفي القرآن شواهد تقدم بعضها ومنها قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً﴾ [الإسراء : ٧٤] مع أنه ﷺ لم يركن إليهم قليلاً ولا كثيراً .

ومن الشواهد الشعرية قول قيس بن الخطيم :

أتـعرف رسماً كالطــراز المذهـــب

لعمرة وحشاً غير موقف راكب

ديار التي كادت ونحن على منى.....

تحـل بنا لولا نجاء الركائب ....

وقول نصيب :

وقد كدت يوم الحزن لما ترنمت

هتـــوف الضحى محزونـــة بالترغم

أموت لمبكاها أسى أن لوعتـــى

ووجدي بسعدي شجوه غير منجم

معنى المنجم : المقلع .

وأما قول حشان بن ثابت :

وتكاد تكسل أن تجيء فراشها

في جسم خرعبة وحسن قوام

فقد قالوا إن المعنى هنا : وتكسل أن تجيء فراشها . وهذا البيت إلى ما رواه ابن قتيبة عن بعضهم واحتجاجه يقول الشاعر وقد كاد يسجد وقول ذي الرمة (كاد يبرح) هي التي أباحت لبعضهم أن يقول بوقوع خبرها ، أما معنى كاد نفيا فهو ثابت .

ويرد بقول الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه : ١٥] فقال بعض : أريد أخفيها ، وكاد تأتي بمعنى أراد ، ومن شواهدها ، قول الأفوة الأودي . :

فـإن تجـمع أوتـاد وأعمـــدة وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا

وقد سبق بعض الأدلة على أن كاد تأتي بمعني أراد عند تفسير قوله تعالى : إذا أخرج يده لم يكد يراها .

وقال الأخفش (كاد) صلة لا قائل به إلا ما ورد عن صفة المفسرين .

والزمخشرى يقول : لا أقول إنها آتية وخرجها بعض آخر على أن أخفى تأتي بمعنى أظهر ..

رأي :

وبعد طول النظر في هذا الحرف وشواهده التي ألممت بها عجبب لموقف اللغويين ، وكيف يتمسكون إلى هذا الحد بمعنى لم تسعفهم فيه الشواهد ، ولاساندهم فيه نقل عن أصحاب اللغة بل إن الشيخ عبد القاهر – وهو من هو يقول : وإن الذين يظنون لكاد هذا المعنى خدعهم العرف أي أن التعبير يكاد يفعل في فعل قد فعل ليس من صحيح اللغة وإنما هو من ألسنة العامة كما قرر ابن هشام . ما لم ينص أولاً على وقوع الفعل ولا أعرف للغويين نظيراً لهذا الرأي واحتجاجهم بقوله تعالى : ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة : ٧١] بأنه يدل على أن كاد في النفي للإثبات ليس سائغاً ولا فضولاً بل إن دلالة الآية على العكس هي الصحيحة ، وذلك أن المعنى على قولهم يئول إلى فذبحوها وقد ذبحها في حين أن المعنى فذبحوها بعد أن كانوا بعداء عن ذبحها [1].

١- فسر العرف ابن هشام في المغني فقال : بعد فذبحوها وما كادوا يفعلون ولما كثر استعمال مثل هذا فيمن انتفت عنه مقارنة الفعل أولا ثم فعل بعد ذلك توهم من وهم أن هذا الفعل بعينه هو الدال على حصول ذلك الفعل بعينه وليس كذلك وإنما فهم حصول الفعل من دليل آخر كما فهم في الأثر من قوله تعالى فذبحوها . جـ٢ ص ١٨٣ .

وقول صاحب الكافية إنه كلام تضمن كلامين ذو وقتين مختلفين له وجه لولا وقوع جملة وما كادوا حلاً ، والمعني فذبحوها في حال كونهم بعداء عن ذبحها غير مقاربين له ، وكذلك قول تأبط شرا :

فأبت إلى فهم وما كدت آبيا

وكم مثلها فارقتها وهي تصفر

معناه أبت في حالة كوني غير مقارب للإياب أي أن اليأس استحكم وحلقاتها ضاقت ثم أتى الفرج فجأة فكان ماعزا أن يكون قيل

لحظات :

ويبدو – والله أعلم – أن كاد كلمة فيها معنى التنحيل أو قل التشبيه ، – وليست بمعنى القرب الخالص فلا تصلح (قرب) مكانها .

يقول العرب كاد التنجيل ويكون كلباً ، وكاد المنتقل يكون راكباً ففي النحيل شبه كبير من الكلب ، وكذلك في المنتقل شبه كبير من الراكب فكأنه هو ولو قلت قرب النخيل يكون كلباً لم تؤد المعنى المقصود في العبارة الأولى .

ويقول الشاعر :

وأسفيه حتى كاد مما أبثه تكلمني أحجاره وملاعبه

يريد أن أحجاره وملاعبه تمثلت له كأنها تريد أن تنطبق وتهيأت له لذلك ولا يفيد هذا المعنى إلا كاد أو كلمة يخيل إلى لأداة تشبيه . وكذلك قول الآخر :

يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلاً يكلمة من حبه وهو أعجم

يصف كلباً فيقول ، إن هذا الكلب لشدة حفاوته بالضيف وأنسه له وفرحه بقدومه كأنه يريد أن يكلمه .

وكذلك قول أبي صخر الهذلي :

تكاد يدي تندي إذا ما لمستها وينبت في أطرافها الورق النضر

وقول ضابيء البرنجي :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني

تركت على عثمان تبكي حلائله

وقول عريف العرافي في الرثاء :

خبر أتاني عن عيينة موجع

كادت عليه تصدَّع الأكباد

ويمكن – والعلم عند الله – أن تخرج الآية ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ على هذا الفهم فيكون المراد أن حال الساعة بين الإخفاء والإظهار فهي لعدم تحديد زمنها خفية وهي لما ذكر من أشراطها وعلامتها مظهرة ، والتعبير في غاية الدقة ، وفي أعلي درجات الحسن ، كأن الله تعالى يقول : إن ما عندكم من علاماتها يكاد ينبئكم بأنها ظاهرة واضحة جلية .

ولست مستريحاً مما قاله المفسرون في هذه الآية فأريد أخفيها كلام لا يشعر بالقوة في هذا السباق ، وكذلك وضع هذه الكلمة المتشابهة على القول بأن الإخفاء بمعنى الإظهار في هذا الوضع يحتاج إلى الإظهار . وليس الإعجاز أن يعبر بكلمة على ضد المراد في الظاهر في مقام يراد فيه أن يقطع على المخاطبين الأمل في معرفة وقتها وإن استند أصحاب هذا الرأي على ما روى أهل العربية من أن أخفى تأتي بمعنى الإخفاء وبمعنى الإظهار ، وشواهدهم قول عبدة بن الطبيب يصف ثوراً :

يخفي التراب بأظلاف ثمانية في أربع مسهن الأرض تحليل

أراد أنه يظهر التراب ويستخرجه بأظلافه . وقول امرئ القيس : فإن تدفنوا الداء لا يخفيه وإن تبعثوا الحرب لا نفقد .

أي لا تظهره . وقول النابغة :

تخفى بأظلافها حتى إذا بلغت يبس الكثيب تداعى الترب فانهديا

ويقولون : إن قراءة الفتح في قوله تعالى ﴿أُخۡفِيهَا﴾ لا تحتمل غير معنى الإظهار . أما القراءة بضم الهمزة فتحتمل الإظهار والستر .

وكذلك قوله تعالى ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ معناه أنه للثقة ولكنه يشبه من لا يبين وإن حاول ذلك وكان يبين بعض الإبانة ويقال مثل ذلك في شواهد كثيرة .

وأما الشواهد التي وردت فيها (كاد) لإثبات الخبر فتخريجها واضح على زيادة (كاد) ولا مانع من زيادة كلمة في الكلام ، فتكاد تكسل ، معناها تكسل وتكاد زائدة (وكاد يسمو) معناها يسمو وكاد زائدة وكذلك قول ذي الرمة (تكاد يبرق) وإن احتمل المعنى بقاء كاد ويكون آراد أنه قرب أن يدهش .

بقى قول كثير عزة :

أموت أسي يوم الرجام وإنني

يمينا لرهن بالذي أنا كائد

والإنسان يكون رهناً بما يوافقه لا بما يقاربه ، والذي أرجحه أن الرواية كابد بالباء الموحدة .

وقد سبق ما نقلته عن ابن هشام من أن سبب الشبهة عند اللغويين نفي النفي خاصة أن الشواهد التي ذكرت جاء فيها نفي الفعل بعد إثباته ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ فأبت إلى فهم ، وما كدت أحفظ شاهداً في نفي كاد لم يتقدمه إثبات لخبرها ، من هنا فرق بعض اللغويين بين نفي الماضي ونفي المضارع فجعلوا نفي الماضي إثباتاً ، ونفي المضارع نفياً ، وقد تبين بما ذكره ابن هشام هو حق أن الإثبات لم يجيء من نفي كاد ، وإنما جاء من صيغة الإثبات قبلها وإن كان هذا ملتزماً .

أما بناء الأحكام الفقهية على مثل هذا فأظنه بعيداً عن التحقيق لأن الأيمان تبني على العرف ويجب مثل ابن شبرمه وذي الرمة وكثيرين .

معارضات القرآن :

اتفقت كلمة العلماء في القديم على أن أحداً لم يستطع أن يعارض القرآن وعلى أن التاريخ لم ينقل كلاماً يمكن أن تنطبق عليه صفة المعارضة .

وقد أجمعت كلمة أصحاب الرأي في هذا الشأن من أهل الفصاحة والبلاغة على أن المعارضة بين الكلاميين لا تعد إلا إذا كان بينها مقاربة ومداناة بحيث يلتبس أحدهما بالآخر أو يكون مقارباً له . وسبيل من عارض صاحبه في خطبة أو شعر أن ينشيء له كلاماً جديداً ويحدث له معنى بديعاً فيجاريه في لفظه ويباريه في معناه .. وليس بأنه يتحيف من أطراف كلام خصمه فينسب منه ثم يبدل كلمة مكان كلمة فيصل بعضه ببعض وصل ترفيع وتلفيق .

ولم نر فيما وصل إلينا من أخبار العرب في عهد النبي ﷺ ولا في العهود القريبة التي جاءت بعده أن فصيحاً من الفصحاء الذين يعتد بهم ألف قولاً تكون سبيله سبيل المعارضة.

****